الفصل الثاني

مستويات البناء اللغوي

❁❁❁❁❁

المبحث الأول: المستوى المعجمي وظاهرة المزج اللغوي بين الأصيل والدخيل.

المبحث الثاني: المستوى الأسلوبي.

المبحث الثالث: المستوى التركيبي.

obeikandl.com

مدخل:

تمتاز الدراسة الفنية للنصّ الأدبي بسعة المجال وتنوعه المنهجي، ويبدو الجانب الأكثر جاذبية للدراسة الفنية البناء اللغوي، ومدى استجابته وملائمته لروح النص، وأدبيته، وخصائصه الأسلوبية.

وقد عكست الأساليب البيانية للنصوص السابقة سمات حداثية وليدة الإنعتاق من أساليب الكتابة الإنشائية السائدة لما قبل الحملة الفرنسية، وما أعقبها، من انتشار الكتب وقيام الصحافة وحركات الترجمة الأدبية والعلمية، مما أسهم في تطوير الأساليب البيانية والإنشائية عامة في المكاتبات والمراسلات وشتى فنون الكتابة، والقضاء على آفة الزخرف البديعي والحشو والاستطراد، وجعل أساليب الكتابة أكثر تركيزاً وإيجازاً، -والبلاغة الإيجاز-، وأسهمت حركات الترجمة النشطة في إعلاء شأن المعنى على حساب اللفظ، فظهرت ألفاظ توصيفية لا سابق لها في التراث اللغوي، نظراً لعظم شأن المخترعات والمكتشفات الحديثة وتداخلها في حياة الناس، مما أوجد مشكلة تأصيلية لتلك الألفاظ التي أصبحت في غضون سنوات ألفاظاً شائعة، بل ومتجذرة في النسيج اللغوي الحديث.

وهذا من جماليات اللغة المحيطة بكل ما يداخلها من ألفاظ أجنبية دخيلة، لتجد لها مشتلاً في حقول التعريب والتوليد والاشتقاق.

obeikandi.com

وقد قامت المجامع اللغوية بجهود واسعة لاحتواء سيل المصطلحات الأجنبية الغزيرة وتعريبها، مما أسهم في إثراء القاموس اللغوي الحديث من ناحية، ومن ناحية أخرى تضررت الأساليب العربية الشامخة لفظاً ومعنى جراء المبالغة في استعمال أساليب البيان الغربي وهو ما يحز في نفس كل متذوق للغة والأدب والشعر والبيان العربي القويم.

لا سيّما أنّ الصحافة ومن بعدها وسائل الإعلام قامت بترويج الأساليب الغربية في صياغة الأخبار والموضوعات، مما أوجد آذاناً سامعة وعيوناً قارئة بنهم وشغف، لتلك الطرائق المستحدثة، وسيبحث هذا الفصل بعض الملامح الأسلوبية بين ما كان عليه، وما صار إليه حال البناء اللغوي للنصوص الأدبية.

oberikandi.com

المبحث الأول

المستوى المعجمي وظاهرة المزج اللغوي بين الأصيل والدخيل

بقدر ما تزدهر الحياة الاجتماعية ويزدهر اقتصـــادها وسياســـتها، تزدهر لغتها وتقوى، فاللغات تعيش وتنمو كالناس، بل وتعتريها مظـــاهر الضعف والشيخوخة، وتموت كما يموت أولئك الأقوام.

ويستلزم التطور في حياة الأمم تطور قاموسها اللغوي في تســـمية المنشآت والمنجزات والمخترعات التي تزيد في رفاهية الإنسان، ومـــن المعروف أن ساكني الشّواطئ الشّرقيّة و الغربيّة للجزيرة العربية قديماً شاعت لديهم ألفاظ ليست لدى غيرهم من سكان قلب الجزيـــرة، فبينمـــا تنتشر الألفاظ الفارسية لدى ساكني شرق الجزيرة، تنتشر فـــي المقابـــل الألفاظ التركية واليونانية عند ساكني غرب الجزيرة، وما هذا إلا لتقاربهم مع جيرانهم ذوي الأصول واللغات المختلفة، وما يتبعها مـــن علاقـــات اقتصادية وثقافية، تُلقي بظلالها على المداولات الكلامية، انطلاقاً من مبدأ التأثر والتأثير بين الجانبين.

وكان للانتشار السريع للإسلام – إثر الفتوحات الإسلامية الأولى ثـــم العلاقات التجارية والثقافية –أثر بيّن لامتلاء معاجم اللغـــات الأخـــرى مـــن فارسية وتركية ويونانية وإنجليزية بحصيلة وافرة من الألفاظ العربية، فمعجم

obeikandl.com

اللغة الإنجليزية مثلاً يزخر بقسط وافرٍ من الألفاظ العربية، مثل كلمة: ليمون، قهوة، الجبر، الكحول، كهف... إلخ.

وعندما قامت ركائز النهضة العربية الحديثة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، دخل كمٍ هائل من الألفاظ الأجنبية حياة الناس، مما استدعى إنشاء المجامع اللغوية؛ لتأطير تلك الألفاظ الأجنبية ضمن إطارٍ عربي.

وتمتلئ اللغة العربية – منذ القدم– بقدرٍ كبيرٍ من الألفاظ الأجنبية "وقد عمد العرب القدماء إلى بعض تلك الألفاظ، فحوروا من بنيتها، وجعلوها على نسج الكلمات العربية، وسمّوها بالمعربة، وتركوا البعض الآخر على صورته، وسمّوه بالدخيل"(١).

وتقوم مجامع اللغة العربية بعمل مشابه، ففيها لجان خاصة بألفاظ الحضارة، ولجان أخرى خاصة بألفاظ النشاط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي(٢).

ومن دلائل توفيق اللغة العربية في دمج الألفاظ الأجنبية ضمن اللسان العربي، مواكبة عشرات بل مئات الألفاظ الحضارية من مخترعات ومنجزات عملية وأساسية في حياة العصر الحديث، فأصبحنا نقول: طائرة وسيارة وقطار وثلاجة ومكواة ودراجة ومكيف.. وهكذا،

---

(١) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٦ / ١٩٩١م، ١٤٩.
(٢) انظر: المرجع السابق ١٤٩.

obeikandi.com

فاللغة العربية تتّسم بالمرونة والحيوية في استيعاب واحتواء الألفاظ الأجنبية، وتصريفها ضمن التعريب أو الاشتقاق، ونحوها من التصريفات اللغوية الملائمة.

وقد تفاوتت نِسَب الألفاظ الأجنبية الواردة في سيَر المرتحلين تفاوتاً بيّناً، فهناك من ترتفع نسبة الألفاظ الأجنبية عنده، وهناك من تقلّ لديه، وهناك من تكاد تنعدم عنده.

ونستطيع تقسيم الألفاظ الواردة في السيَر إلى ثلاثة أقسام:

أ –الألفاظ المعربة.

ب –الألفاظ الدخيلة.

ج –الألفاظ العامية.

ومع أن العامية لا تنتمي بالضرورة إلى الألفاظ الأجنبية، إلا أننا لا نستطيع نفي وجود صلة بينهما، تتضح للقارئ والمتمعن بدرجة أو بأخرى.

وإلى جانب هذه الأقسام، توجد كلمات وجمل لم تعد تُستعمل منذ أمدٍ بعيد، واختفى ورودها في كتابات المتأخرين، مثل: ولي النعم، والعزيز.

obeikandl.com

وقد وردت الأولى عند رفاعة الطهطاوي في(التخليص)، ووردت الثانية عند علي مبارك في (حياتي).

وكلتا الكلمتين راجعتان في دلالتهما إلى حاكم مصـــر فـــي ذلـــك الوقت، وهو محمد علي باشا.

وحتى (مصر) وردت في هذين الكتابين بلفظ (المحروســـة) فـــي كثير من الأحيان.

ويستطيع المرء استشفاف صورة بيّنة عن المسميات والألفاظ الشائعة آنذاك، لدى طائفة الكتاب والمتأدبين، في كتاباتهم ومراسلاتهم. وسأورد بعض الأمثلة لتلك الألفاظ الواردة:

obeikandl.com

الألفاظ / تخليص الإبريز	ألفاظ معربة	ألفاظ دخيلة	ألفاظ عامية	ألفاظ فصيحة مندرسة
رفاعة الطهطاوي (ت ١٨٧٣م)		الفرنسيس ص ٦٥	طبليات ص ٥٤	
		البوسطة ص ١٨		أوراق الوقائع اليومية ص٥٦
		فرمان ص ٢١٥		ولي النعم ص ٢١٦
		أفندية ص ٢١٥		

obeikandl.com

الألفاظ / حياتي	ألفاظ معربة	ألفاظ دخيلة	ألفاظ عامية	ألفاظ فصيحة مندرسة
علي مبارك (ت ١٨٩٣م)		صندلاً ص ٤٢		الجهادية ص ٧
		السلاملك ص ٤٢		العزيز ص ٨
		الكتخد ص ٢٠		خمسون محبوباً ص ١٣
		مهند خانه ص ٧٥		
		الوابور ص ٢٢		المحروسة ص٢٢
		الرصدخانه ص ٢٤		مضبطة ص ٢٩
		الطوبخانه ص ٦١		

obeikandl.com

الألفاظ / رسائل البشرى	ألفاظ معربة	ألفاظ دخيلة	ألفاظ عامية	ألفاظ فصيحة مندرسة
حسين توفيق العدل (ت١٩٠٤م)	محلات تشخيص الروايات والمغاني (اسم توصيفي) ص ٧٩	لامبة ص ٥		فشمتهم ص ٣
		أودة ص ٣٨		مسيساً ص٣٧
		الوابور ص ٣٩		كلمات التشكر والممنونية ص٥٢
		أوتيل ص ٨٣		الجارية ص ٧٧
		كُبري ص٩٤		القلنسوة ص ٨٧
		برافو برافو ص ٩٥		الرقاع ص ٩٢
		البرلمان ص ٩٨		

obeikandl.com

الألفاظ / مذكرات مسافر	ألفاظ معربة	ألفاظ دخيلة	ألفاظ عامية	ألفاظ فصيحة مندرسة
مصطفى عبدالرازق (ت١٩٤٧م)		فوتوغرافيا ص٣٧		مبغوم ص ٢٢
		الأوتومبيل ص ٣٧، ٣٨	معلهش ص٦٣	نجيع ص٢٣
		السجائر ص٤٩		مفرطحة ص ٣٧
		المودة ص٥١		الحقانية ص ٦٨
		الكُرسية ص٥١		الدمقس المفتّل ص٧٠
		الكورنيش ص٥٠		
		الأوتوكار ص٥٥		

obeikandl.com

الألفاظ / الرحلة الأمريكية	ألفاظ معربة	ألفاظ دخيلة	ألفاظ عامية	ألفاظ فصيحة مندرسة
محمد علي باشا (ت ١٩٥٥م)	الحاكي ص٢٠٧	برنسيس ص٣٢ ساندويش ص٣٣ البوستة ص٤٢		سرابيل ص٦١
		توربيد ص ١٣٦ برلمان ص١٨٦ مدام ص٢٣٦		مسرّة ص١٤٤ خُفّ ص ٢٠٣
		آرغن ص ١٣٣		قدح ص٦٨
		تلغراف ص٣٤		
		الأوبرا ص١٧٥		حُلّة ص١١٤

obeikandl.com

ومن خلال الأمثلة السابقة لطائفة من المنشئين الأوائل في القرنين التاسع عشر والعشرين (رفاعة الطهطاوي، على مبارك، حسن توفيق العدل، محمد علي باشا، مصطفى عبدالرازق)، تبرز ملحوظتان:

- ❖ أولاً: التمكن اللغوي القوي في هذه الكتابات التي تعكس صورة صادقة للإنشاء، في القرنين السابقين، وهي صورة متشبثة بالأساليب القديمة الزاهية، فلا يوجد زخرف ولا حشو في غير مكانه، ورحلة علم الدين لعلي مبارك – مع ما فيها من موضوعات غزيرة– علامة ساطعة على تحرر الإنشاء من قيود البديع وأغلال الحشو والاستطراد، وما هذه الكتابات المبكرة إلا دلائل لبداية ازدهار الكتابة النثرية، واسترداد عافيتها من جديد.
- ❖ ثانياً: تضمنت المؤلفات السابقة مجموعة متنوعة من الألفاظ والمصطلحات ذات الأصول الحضارية المختلفة، من تركية وفارسية و أوروبية. وكثُرت فيها المفردات الأصيلة الشائعة قديماً، مثل:

قَدح خُفّ حُلّة

عوضاً عن:

كأس حذاء ثوب/ لباس.

obeikandi.com

ومع كثرة تزايد المصطلحات الأجنبية تزايدت مرادفاتها العربية، مثل:

ساندوتش ⟸ شطيرة

الأوتومبيل ⟸ السيارة

لامبة ⟸ المصباح

أوتيل ⟸ فندق

البوسطة ⟸ البريد

وقد توطدت بعض الألفاظ الأوروبية – على وجه خاص– في قلب النسيج اللغوي العربي، دون تركيز الاهتمام لإيجاد مرادفات عربية لها، مثل:

توربيد، موضة، كورنيش، البرلمان

******

ولا تكاد تخلو سيَر الدراسة من الكلمات العاميـــة والدخيلـــة، وإن كانت نسبة الألفاظ الدخيلة تزيد عن الألفاظ العامية، فـــلأن موضـــوعات السيَر مُلتحمة بالمجتمعات الغربية، ومتعايشة فيها، فكان مـــن المنطقـــي تزايد ورود الألفاظ الدخيلة على العامية.

obeikandl.com

وتعتمد كثرة الألفاظ العامية بحسب الكاتب نفسه، مثل هالة سرحان في(أمريكا خبط لزق) بأسلوبها الصحفي السلس، والمطعم بالألفاظ الدخيلة والعامية، ولم تقتصر في ذلك على إيراد الألفاظ العامية بشكل مفرد متناثر هنا وهناك، بل كانت تسوق جملاً كاملة بالعامية المصرية، وهي هنا تتفرد بهذه الغزارة في استعمال العامية سواء كانت أمثالاً مشهورة مثل:

- سكة اللي يروح ما يرجعش. ص ١٤
- اللي اختشوا ماتوا. ص ٦٦
- لا يوجد (صريخ ابن يومين) في الشارع. ص ٨٥
- لابد أن يكون الوالد مليونيراً و(بارم ديله). ص ٨٥
- جيتك يا عبد المعين تعينّي. ص ١٠١

أو أنها تسوق جملاً كلامية مثل:

- شفت الهرم شكله إيه؟ ص ٨٢
- إحنا مالنا. ص ٩٥
- اطلع يا أسطى على برواداي. ص ١٥٥

obeikandl.com

والكتاب بمجمله مليء بمثل هذه الأمثال والجمل، تعتمد عليها الكاتبة لتعزيز المعنى من خلال الأمثال والعبارات الشائعة.

• وهناك بعض الكلمات التي تستوقف القارئ باستعمالها في سياق مفهوم آخر مختلف عن حقيقة المسمى، مثل كلمة (كوسة)، وهي الثمرة المعروفة كصنف من الخضار المستعمل في الطعام.

وسأذكر موقف محمد عناني عند سماعه لهذه الكلمة لأول مرة في سياق لا يمتّ لحقيقة الاسم بصلة.

فمحمّد عناني غادر مصر في منتصف الستينات الميلادية، ورجع في منتصف السبعينات، عاش خلالها عشر سنوات في بريطانيا، وأصبح متمكناً من اللغة الإنجليزية لأقصى حدٍ، ولم يعد يفهم لغة (أهل البلد) من الإنجليز، أو ينافس في كتاباته الأدبية الإنجليزية (برامج وتمثيليات) كُتاب التلفاز من البريطانيين[١] البارزين فحسب، بل وصل في حالته إلى أن صار يفكر بالإنجليزية[٢]، وهنا انتابه القلق العميق، فقد خشي على جذوره وانتمائه العربي من الاضمحلال شيئاً فشيئاً في المجتمع البريطاني، وكان لابد له من وقفة حازمة مع نفسه: فقد نال شهادته، فما الداعي إذن للبقاء؟ وإلى متى هذا البقاء؟ وكان أن حسم الموضوع، وحزم حقائبه، وعاد مع أسرته الصغيرة على أقرب طائرة، يقول:

---

(١) انظر: واحات الغربة ٢/ ٢٠٣

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٠٦

obeikandl.com

"وعندما وصلت الطائرة نحو منتصف الليل، أمر المضيف ركاب الدرجة السياحية أن يلزموا أماكنهم، ريثما يهبط كبار المسافرين، ولمحت بينهم الدكتور عبد القادر حاتم (صديق له)، وصاح البعضُ: كوسة! كوسة! ولم أفهم، فسألت الأستاذ إبراهيم، فقال: إنها تعني المحاباة! ولم أعلق! لقد تغيرت اللغة، ولابد من بذل جهد جديد لفهمها"(١).

فقد جدّت ألفاظ ومصطلحات في لغة الكلام اليومي المتداول بين الناس، فكان لابد لعناني من بذل جهد لفهم اللغة من جديد، ولكنها هذه المرة لغته الأم، اللغة العربية.

ونستطيع تصور وضع مشابه لوضع عناني، إذا ما تصورنا حال كلامنا اليومي الآن، ثم قارنّاه بما كان عليه قبل عقد أو عقدين من الزمن، لنرى كيف كان، وإلى ماذا صار.

ولا أعلم حقيقة الرابط بين ثمرة الكوسة ومفهوم المحاباة أو الواسطة أو اليد الواصلة، فنحن في مجتمعنا المحلي قد نُعبِّر عن الواسطة بفيتامين واو، أما في مصر يُعبَر عنها بالكوسة، وإذا كان فيتامين واو مفهوماً؛ فالفيتامين مادة مُقوية يأخذها الإنسان ليتقوى بها، وحرف الواو تدل على أول حرف في كلمة (واسطة)، وعلى هذا فجملة(فيتامين واو) مفهومة الدلالة. ولكني لا أعرف تحديداً الدلالة الخفية لهذه الثمرة

(١) المصدر السابق ٢/٢١٩.

obeikandi.com

وعلاقتها بالمحاباة والمجاملة واليد الواصلة والممالأة... إلخ من هذه المعاني المتقاربة.

ولكنها –على كل حال– وردت عند محمد عناني، وعند عبد الوهاب المسيري أيضاً [1]. واستغراب عناني للكلمة عند سماعه لها في ذلك الموقف منطقي، ففي أثناء غيابه عن البلاد طيلة عشر سنوات توالدت كلمات عامية، واشتُقت كلمات أخرى، وتحورت المعاني.

و هناك رحلة لويس عوض[2] الدراسية المعنونة باسم **مذكرات طالب بعثة**، ولويس عوض له سيرتان: سيرة بعنوان **أوراق العمر** تشمل مجمل مراحل حياته،وهي مكتوبة بالفصحى، أمّا سيرته **مذكرات طالب**

---

(١) استعمل عبد الوهاب المسيري كلمة (كوسة) في معنى المحاباة، ولم يكن جاهلاً بمعناها الرامي للمجاملة والتزلف.

انظر:

رحلتي الفكرية، ١٥٩

(٢) لويس عوض : (١٩١٥ – ١٩٩٠م) تخرج بدرجة ليسانس عام ١٩٣٧ ، وابتُعث لمواصلة دراسته العليا ،فحصل على الماجستير عام ١٩٤٣م ، وعلى الدكتوراه عام ١٩٥٣م. عمل أستاذاً في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم رئيساً للقسم في عام ١٩٤٥م. وعمل كذلك مديراً عاما للثقافة بوزارة الثقافة كمستشار لمؤسسة الأهرام، له جملة من المؤلفات المتخصصة في الأدب الانجليزي. ومن كتبه : في الأدب الإنجليزي الحديث – مذكراته (أوراق العمر) – روايته الشهيرة (العنقاء) – ومن كتبه التي أثارت جدلاً واسعاً (مقدمة في فقه اللغة العربية) ،وقد اتهمه بعض النقاد بأنه يهدف من جملة كتاباته عامة التهجم على الإسلام واللغة العربية، وقد عاش لويس عوض طوال عمره مناوئاً للإسلام واللغة العربية.

انظر : الموسوعة الحرة ويكيبديا

obeikandl.com

بعثة فهي سيرة جانبية/ جزئية، خاصة ببعثته الدراسية لدراسة الماجستير والدكتوراه.

وقد كتبها بالعامية من أوّلها لآخرها، لأن عوض آثر في مرحلة من حياته ألاّ يكتب إلا بالعامية؛ بسبب انسلاخه من التراث العربي الفصيح، وكل ما يمتّ إليه، فهو من أبرز الدعاة إلى بعث الحضارات السابقة لمصر، وإحيائها من جديد، ونبذ حضارة الإسلام والعروبة، ونادى أيضاً إلى نبذ الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، ودعا للكتابة بالعامية المصرية وهجر الفصحى، وقد اجتهد بعد عودته من بعثته لتحقيق دعوته إلى تمكين العامية المصرية، وكتب كتابه **مذكرات طالب بعثة** بالعامية المصرية، إلا إن دعوته هذه لم تستمر طويلاً، لأنها لم تجد آذاناً صاغية لتطبيقها، والعمل على تحقيقها.

ولكن، وبعيداً عن كل هذا، تحوي هذه المذكرات مضموناً جميلاً ومُشوقاً، عاش صاحبها فصول أحداثها وهو لما يزل في الثالثة والعشرين من العمر، وتحدث كثيراً عن خبايا لندن وباريس ودولة جنوب أفريقيا، وهي الدول التي شملتها المذكرات.

obeikandl.com

* تحدث كثيراً عن مدينة كامبردج البريطانية، وعن طرائف تلاميذها، لاسيما في بداية معرفته بهذه المدينة، وإقامته في سكن طلبتها، يقول:

"لما استوطنت شوية في كامبردج عرفت أن السرقة منتشرة بين التلامذة، سرقة الكتب والروايات والبسكليتات بس، أنا فاكر تمام في أول فصل دراسي دخلت قهوة وقلعت الروب والكاب وعلقتهم ع الشماعة، بعد نص ساعة طلعت لقيت واحد لطش الكاب... الحقيقة أن السرقة دي ف مدينة الجامعة نصها شيطنة ونصها ضعف أخلاق، لأن ف حالات كثيرة حاجتك ترجعك تاني، يعني مثلاً تلميذ يلقى نفسه بالليل ف وسط البلد من غير روب، ولو مشى ف الشارع يتمسك ويتغرم يعمل إيه؟.....تلاقي الروب بتاعك عند بواب الكلية بتاعتك أو ما تلاقهوش.. طبعاً فيه حاجات كتيرة بتضيع ما بترجعش، لكن ألطف من دا كله السرقة المقصود بيها المغامرة، دي تلاقيها ماشية ف نص التلامذة ع الأقل، الواحد يخش يشرب شاي و قهوة، ويغافل الجرسونة، ويحط طبق أو شوكة أو أي حاجة ف جيبه، وتروح تزوره ف بيته تلاقي عنده عشرين تلاتين طبق أو شوكة معلقهم فوق الدفاية ف طابور، وكل حاجة عليها تاريخ السرقة وظروفها"(١).

(١) مذكرات طالب بعثة، لويس عوض، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠١م، ٢٢٧، ٢٢٨.

obeikandl.com

ويوضح النص جانباً من جوانب التقاليد البريطانية، في إلزام طلبة هذه الجامعة المرموقة بألاّ يسيروا في المدينة الجامعية إلا وهم مرتــدون الروب الجامعي(١)، وهو عبارة عن عباءة داكنة مع غطاء للرأس مُسطح القاعدة يُعرف بالكاب، ولا أعلم ما إذا كانت هذه الإلزامــات والأنظمــة سائرة إلى اليوم.

أما السرقات في الجامعة، فعلى ما يبدو بأنها تنفيس طريف ومبتكر للتلاميذ تجاه صرامة الحيــاة الجامعيــة وجــدّيتها، بــدليل أن غالبيــة المسروقات أغراض بسيطة وتافهة، والطلبة هنا يستمتعون بهذا الطقــس الشائع لديهم (السرقة)، ويمارسونه بمغامرة وتفنن.

ومثلما يمتلئ النص بالكلمات الفصيحة، يمتلــئ كــذلك بالكلمــات العامية مثل:

شوية لطش ما بترجعش يخش

_ وبعض الكلمات الدخيلة، مثل:

البسكليتّات

الجرسونة

(١) وهذا الزي الموحد لطلاب جامعة كامبردج أحد ألوان الأنظمة الصارمة لهذه الجامعة.

obeikandl.com

ولا يستطيع القارئ قراءة النص إلا بمعرفة العامية المصرية، بما فيها من حذف وتسهيل وإمالة ونحوها من التصريفات اللغوية، فتتحـــول كلمة:

بها إلى بيها

وثلاثين إلى تلاتين

ونصفها إلى نصها... وهكذا.

******

* وردت الألفاظ العامية كذلك عند أحمد عطية في مشاهداته السياحية في لندن وأوروبا، وعند حسين فوزي في رحلته الدراسية لأوروبا.

ومن اللافت للنظر أن أغلب الرحالة الأوائل – مثل محمد ثابت وأحمد عطية الله وحسن جوهر– امتاز وصف رحلاتهم بلغته القوية المتمكنة، ولعل السبب يكمن في التأسيس التعليمي المتين لهم، فجاءت لغتهم جزلة ومحافظة، مع محافظتها على طابع الوضوح والمباشرة، وقلّت الكلمات العامية في كتاباتهم إلى أضيق الحدود، كما في هذا النص الذي يصف فيه عطية الله المارة الماشين في الصباح الباكر:

"والوجوه التي تشاهدها في شوارع لندن في هذه الساعة المبكـــرة، وجوه أصحابها يتقابلون كل يوم في هذه الشوارع المُقفرة، يسيرون يحيّي

obeikandl.com

بعضهم بعضاً، وقليل منهم من يسير (سبهللا) [١] ينظر إلى النوافذ أو يقرأ أسماء الشوارع أو إعلانات الجدران"[٢].

والواقع أن كلمة (سبهللا) كلمة عربية فصيحة، وتعامل غالباً كلفظ عامي حتى عند بعض المثقفين، فعندما أدرجها أحمد عطية الله ويحيى حقي كذلك، جعلاها بين قوسين لتمييزها عن بقية الكلام.

"والسبهلل هو الرجل الفارغ، ويقال: يمشي سبهللا أي يجيء ويذهب في غير شيء، وكذلك الأمر أو الشيء الذي لا ثمرة فيه."[٣]

ومن الكلمات العامية التي جاءت في سيرة حسين فوزي **سندباد في رحلة الحياة** ألفاظ يصعب على غير المصري فهمها على وجه التحديد.

يتحدث عن الحرب العالمية الثانية:

"دارت رحى الحرب العالمية الثانية، ولما تزل آثار الأزمة الاقتصادية الكبرى، فشلفطت الفاشستية والنازية وأذنابها، بل محتها من وجه الأرض"[٤].

---

(١) وردت كلمة سبهللا أيضاً في ذكريات يحيى حقي ١١٧.

(٢) لندن، ٢١٦.

(٣) المعجم الوسيط. إخراج : إبراهيم أنيس وآخرين. دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ط٢/ ١٣٩٣هـ. ٤١٥/١.

(٤) سندباد في رحلة الحياة،١٣٢

obeikandi.com

ومثل بعض كلمات النصين السابقين تحتاج إلى السؤال والتقصي عن حقيقة معناها، مثل:

شلفطت[1]

في حين أن بعض الكلمات العامية الأخرى لا تحتاج إلى قدح الذهن وإعماله لفهمها، بسبب وضوحها مثل: (شوف بختك).

(١) سألت الأستاذ حسين علي محمد(رحمه الله) الشاعر والأستاذ الجامعي بجامعة الإمام، فأوضح بأن كلمة شلفطت بمعنى رمَت، وهي كلمة عامية بحتة ولا أصل لها في اللغة الفصيحة ، كما اتضح لي بعد ذلك من كتاب المحكم في أصول الكلمات العامية.
وشلفط وجهه ، أي رماه وشوّه ملامحه، وشلفطت: أي مسحت بغير نظام.

obeikandl.com

المبحث الثاني

المستوى الأسلوبي

من نافلة القول أن تميز العمل الأدبي يعتمد بدرجة عالية على طريقة عرضه. وتنجح الأساليب التصويرية أكثر من التقريرية بسبب تفعيلها لسمة الخيال في عرض النص، فهناك من يعرض الحدث / الواقعة كما يراها، وهناك من يعرضها كما يشعر بها، وهذه علامة فاصلة في تميز نص عن آخر(١).

تختلف الأساليب الأدبية باختلاف أصحابها أنفسهم، فأيام طه حسين –على سبيل المثال– ذات طابع تصويري متعمق، إنْ في تصوير البيئة الخارجية أو الذات الداخلية لصاحبها، وما يعتريها من مشاعر

---

(١) ناقش الباحث السويدي تيتز رووكي في كتابه: (في طفولتي، دراسة في السيرة الذاتية العربية) معيار الأدبية في السيرة الذاتية، وهل هناك سيرة ذاتية أدبية، وسيرة ذاتية غير أدبية؟ وأن ما يبدو سيرة ذاتية غير أدبية قد يوجد بها حسٌّ أدبي من منظور قارئ ما، فلا يوجد تعريف ثابت للأدبية في النص. فالفرق بين القول اللغوي وسواه إنما هو فرق مائع وغير محدد. انظر : في طفولتي ٢٢٨ ، ٢٢٩.

وهذا ما أراه فعلاً ، فالكاتب عبد الرحمن بدوي – على سبيل المثال– ليس له في حقل الأدب إلا النزر اليسير (بعض الدواوين الشعرية وبعض ترجمات الأدب الأوربي) مقارنة مثلاً بحقله الأساسي وهو الفلسفة ، إلا أن أسلوبه الرشيق والمتمكن في كتابه سيرة حياة ، حتّم عليّ إدراج سيرته ضمن سير الدراسة، فهو يجمع في أسلوبه بين المتعة والقوة والوضوح، وهذه قمة التمكن الأسلوبي كما هو معلوم.

obeikandi.com

متصارعة. أما سيرة أحمد أمين (حياتي) فتمتاز بأسلوبها التقريري وطابعها الإخباري البعيد عن أفانين البلاغة في المجاز و الاستعارة ونحو ذلك.

وتندرج كذلك سيرة (في الخمسين عرفت طريقي) لمحمود الربيعي ضمن نفس الطابع التقريري، كما عند سابقه أحمد أمين في سيرته التي تتسم بالهدوء العام و الابتعاد التام عن الصخب والقلق والتقلب الذهني. و تكثر في هذه السيرة الأفعال (الماضية تحديداً)

كـــ ذهبت صنعت درست

عملت سافرت تزوجت أنجبت...

فالوظيفة الأساسية لهذه السيرة إخبارية بحتة، ذات طابع تاريخي في توثيق المعلومات والحقائق، كهذا المثال:

"كانت الحارة و ما حولها مدرسة لي، تعلمت منها اللغة العامية القاهرية الصميمة من ألفاظها و أساليبها و أمثالها و زجلها... وتعلمت منها كل العادات والتقاليد البلدية، و رأيت كيف تقام الأفراح عند الطبقة الدنيا و كيف يفرحون و يمرحون و كيف يغنون وما يغنون، و رأيت كيف تقوم لذائذ الحياة و آمالها عند كل طبقة"[١]

-ويلاحظ في هذا النص المتعلق ببدايات شباب المؤلف وذكرياته لبيئته وعالمه الصغير في الحارة، كيف أن النص جاء بصيغة الأخبار المتتالية؛ للدلالة على تراكم خبرات الحياة.

---

(١) حياتي : ٧٨.

obeikandl.com

و أغلب فقرات (حياتي) على هذا النحو، في عبارات فاصلة، لا مجال فيها للاستنباط الداخلي فيها- عدا مواضع قليلة ومحدودة - ما جعلها عبارات مبتسرة بشكل قسري، فأخلّ بقيمتها الفنية.

وقد أشار علي عبده بركات لهذه الجزئية، عندما أوضح أن تناول أحمد أمين " لبعض أركان حياته كأنه تقرير إداري عن بعض فترات عمره "[١] وهو محق في هذا ولاشك.

وتتشابه سيرة محمود الربيعي في أسلوبه التقريري مع سابقه أحمد أمين، لكن الربيعي أكثر احترازاً و حرصاً، حتّى أنّ القارئ يشعر بحرص الكاتب وتأنيه وحذره في تناول الموضوع.

يذكر في بدايات سكناه بلندن كيف كانت حياته مع زوجته مليئة بالتحفظ الكبير، كتحفظ الغرباء من الوافدين الجدد. و قد حدث ذات مرة أن تلقيا دعوة من زوجين إنجليزيين لاستضافتهما في عيد الميلاد بمقاطعة (كنت) الريفية..

يقول:

"أخذنا القطار من محطة فكتوريا (فيما أتذكر) إلى "كنت". و كان يوماً بارداً قاتماً، ولكن النشاط الذي دبّ في قلبينا - إلى جانب جمال الطريق- جعل من الرحلة شيئاً ممتعا حقاً. وكان الزوج في انتظارنا-على الرصيف- طبقا لما كان مُوضحاً برسالة الدعوة، فأخذنا بسيارته "الفلوكس فاجن" إلى منزله. وقد وجدنا السيدة - سيدة "المجلس البريطاني" - في الانتظار، ترحب بنا ترحيباً حاراً، وقادتنا إلى ردهة كبيرة دافئة نظيفة ذات واجهة زجاجية هائلة تطل على البراح الأخضر.

---

(١) اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية. علي عبده بركات. مطبوعات تهامة ، جده ط١ / ١٤٠٢هـ. ٦٣.

obeikandl.com

وقلت لنفسي: وإذن فهذا هو الريف (ولم يكن هو بالضبط!) ياله – مرة أخرى – من شيء رائع، شبيه – من حيث روح الخضرة – بحقولنا في جهينة! وفاض بي بحر الذكريات و الحنين إلى الأوطان"[1]

-ويعكس النص الأسلوب الغالب على سيرة الربيعي، فهو- إلى جانب تقريريته – مليء بأدوات الاعتراض و أقواس التوضيح، لالتزام صاحبه بالدقة و التوضيح بأكبر قدر مستطاع. وكثرة استخدام هذه الأدوات لا تُعين الكاتب في إضفاء الدقة و الوضوح، بل تسهم في إضفاء طابع القلق وزعزعة الأسلوب، مع أن الاستخدام المعقول والسليم لمثل هذه الأدوات التوضيحية من شأنه سبر النص الأدبي بصورة أكثر جلاء. ولكن الربيعي أكثرَ من استعمال هذه الأدوات لدرجة قلبت الوظيفة الأساسية لها.

وفي النص أيضا سمة أساسية لديه، وهي كثرة استدعاء وطنه الأم – وسيأتي تناول هذه السمة بعد قليل.

- وبالنسبة للسيَر التي اعتمدت الأساليب التصويرية في عرض وقائعها ومشاهداتها. فلا شك بأنها تتميز بنوع من الوحدة العضوية في بناء معالم صورها، وهو ما يرفع الحس الإنساني فيها إلى درجة عالية من الوضوح والتأثير؛ لتعمقها داخل النفس الإنسانية.

وقد يحدث أن يعمد التصوير لأبسط أداة فيه- وهي التشبيه- ويكون مؤثراً بصور تحفظ له مكاناً في الذاكرة، كما نشاهد مثلاً عند حسين فوزي حالما شاهد جزيرة كورسيكا، وهو على متن السفينة في طريقه

(١) في الخمسين عرفت طريقي : ٩٢.

obeikandl.com

البحري إلى فرنسا، و كيف أخذت بلبّه هذه الجزيرة بمشاهدتها عن بعد وتأملها كاملة بجبالها وبراكينها وطبيعتها: "يا لله! ما أجمل منظر المدن من بعد، حينما نحيط مدينة كاملة بنظرنا، كأن نقف على ربوة، أو في أعلى الأبنية الشاهقة...، فإذا هبطنا من المرتفع ابتلعتنا المدينة وابتلعت إحساسنا بها، ولكن في السفينة نبتلع المدن، ونبتلع الجبال والبراكين... المسافة! كلمة صغيرة ولكن أي غول هائل، فهي قادرة على ابتلاع الأرض كافتها"(١)

وهذا التأمل رد فعل لعين غير مصدقة لما تراه، تمكّن فيه صاحبها من حفظ المنظر المرئي على ضخامته في مشهد منظور بحدود رؤية العين. وفي تأمله هذا، لا يشغل باله بالتفاصيل، بل يدع نفسه على سجيتها. وقد تكامل تركيزه للوصف الداخلي بإحساسه وانفعاله لما يرى، مع الوصف الخارجي لعموم التضاريس العملاقة، عندما أخذت بالتضاؤل شيئاً فشيئاً.

وفي صورة تعبيرية أخرى، يصف توفيق الحكيم قلقه الدائم، ذلك القلق الذي ينخر روحه كما يفعل السوس في الخشب:

"ما أشد حاجتي إلى حياة قائمة على أعمدة راسخة، كالمعبد الضخم الجميل، إني معبد يتصاعد من جوفه لا بخار الإيمان، بل بخار الشك القلق، إني أتألم ألماً لا يراه أحد. إذ لا يظهر على وجهي شيء غير هدوء الرضا.

(١) سندباد في رحلة الحياة : ١٣٨.

obeikandl.com

هنالك دودة دائمة الوخز دائبة النخر في قلب هادئ المظهر، رائع المنظر كالكمثرى الذهبية"[1]

و يشع النص بمعاني الإفناء، إفناء روح الحكيم باطّراد مُلِحّ ودؤوب. إنه البناء الجميل الظاهري فوق أطلالٍ متراكمة من عمليات الهدم والإفناء المتواصل. وتتآكل روح صاحبها فلا يتبقى منها حياً إلا ما تبقيه دودة نهمة في جوف كمثرى براقة.

- وقد اتسمت سير الدراسة عامة بظواهر أسلوبية مشتركة، كان على رأسها:
  - ظاهرة الاستشهاد بالشعر.
  - ظاهرة الاستدعاء.

الاستشهاد بالشعر:

مثّل الاستشهاد بالشعر سمة أسلوبية بارزة في سير الدراسة، نجد هذا واضحاً عند كل من رفاعة الطهطاوي و مصطفى عبد الرزاق و زكي مبارك و طه حسين و أحمد أمين و غيرهم. فمن أجل الترغيب بالسفر ومشاهدة بلاد الفرنجة و طبائع أهلها يورد الطهطاوي بيتاً من الشعر في مطلع رحلته:

(١) زهرة العمر : ٥٣.

obeikandl.com

"من لم يرَ الروم و لا أهلها

ما عرف الدنيا ولا الناس"[1]

وقليلة هي الأبيات المفردة عند الطهطاوي، فهو يكثر من ذكر البيتين والثلاثة و أكثر، في كل موضوع ومناسبة.

وقد استعان طه حسين كذلك في أيامه ببعض الأبيات الشعرية، مثل البيتين اللذين كتبهما بعدما استبد به الحزن و اليأس من جراء العودة القسرية إلى مصر، و قطع رحلة الإبتعاث بسبب ظروف الحرب العالمية، ما اضطره للمكث في بلاده ثلاثة أشهر، يقول:

"الحمد لـــلّه على أنــني

قد صرت من دهري إلى شرّ حال

لا أملك القوت ولا أبتغي

ما فاتني منه بـــــــذلّ الســؤال"[2]

وفي مناسبة أخرى قبل ذلك، ذكر طه حسين كيف أن بضعة أبيات شعرية تسببت برسوبه في امتحان العالمية، وكان مجموعة من كبار الأساتذة قد اجتمعوا في أحد فنادق القاهرة، و أشيع بعد ذلك عن أن المشروبات الكحولية قد قُدّمت على مائدة هؤلاء الأساتذة / الشيوخ، فهاج الطلبة ضد ذلك:

"رعى الله المشايخ إذا توافو

إلى سافواي في يوم الخميس

وإذ شهِدوا كؤوس الخمر صرفاً

تدور بها السقاة على الجلوس

---

(١) تخليص الإبريز ، ٦٣.

(٢) الأيام ٣ / ٥٥٢.

obeikandl.com

رئيس المسلمين عداك ذمٌّ

ألا لـــله درُّك من رئيـــس"[1]

و قد تسببت هذه الأبيات بسقوط الفتى الذي لم ينسبها إلى نفسه، وإنما تلقاها في بريده على حد قوله.

واستشهد أحمد أمين كذلك بالشعر في حادثة طريفة له، في مدينة بروكسل ببلجيكا، وكان مدعواً لمؤتمر عن المستشرقين، فرأى أن يذهب قبل عقد المؤتمر لحلاقة شعره عند أقرب حلاق، وبما أنه لا يعرف الفرنسية، و الحلاق لا يفهم الإنجليزية، فقد قال:"حتى رأيت آخر الأمر رأسي و ليس بها إلا شعر خفيف جداً قصير جداً"[2]

وقد قصّ أحمد أمين ما حدث له لبعض أصدقائه، و قال مستشهداً بشعر أحدهم على ما حدث له:-

"ونظر الأستاذ في المراية

فلم يجد في رأسه شعراية" [3]

ووردت عند بعض أصحاب السير ممن درسوا و تخصصوا في الأدب الإنجليزي، مثل "محمد عناني و عبد الوهاب المسيري و رضوى عاشور" أشعار إنجليزية مترجمة، بعضها من تأليفهم و بعضها لأعلام الشعر الإنجليزي.

---

(١) المصدر السابق ، ٣ / ٤٠٢.

(٢) حياتي ، ٢٤١.

(٣) المصدر السابق ٢٤٢.

obeikandl.com

فعندما زارت رضوى عاشور حي الزنوج الشهير في نيويورك هارلم، شعرت بمدى قسوة الواقع الذي يعيشه السود،و خطرت ببالها قصيدة لشاعر عن هذا الحي:-

ما الذي يحدث لحلمٍ أجَّلوه ؟
هل يجف
كزبيبة في الشمس
أم تخرج به القروح فيتقيح ؟
هل تفوح رائحته كاللحم العطن ؟
أم يفرز قشرة
كمشروب سكري مركز ؟
ربما يتدلى كحملٍ ثقيل
أم أنه ينفجر؟[١]

و تتحدث الكاتبة عن مدينة نيويورك في تلك الفترة الصعبة من تاريخ العنصرية الأمريكية:

"نيويورك تختار بياضها العرقي و تترك للسود هارلم، فتصبح عاصمة لفقرائهم ومهنييهم وفنانيهم و جنودهم العائدين من الحرب العالمية بأفكار عن تحرر الشعوب"[٢]

وهذا صحيح، فقد خرج من هذا الحي كثير من نجوم الرياضة والموسيقى، واشتهروا على نطاق العالم بأسره.

---

(١) الرحلة ١٣٢.
(٢) المصدر السابق : ١٣٣.

obeikandl.com

الاستدعاء:

الاستدعاء صورة من صور الارتباط النفسي الوثيق، و قد مثّل الاستدعاء متكأً للذاكرة الجماعية في سيَر الدراسة، التي امتلأت بعشرات الأمثلة الاستدعائية، مما حتّم ضرورة التصنيف النوعي لهذه الأمثلة. وقد كانت الأمثلة الأكثر حضوراً وتمثيلاً من نصيب الجانب الحضاري بدءاً من رفاعة الطهطاوي، و مروراً بعشرات الأمثلة عند رضوى عاشور و عبد الرحمن بدوي و هالة سرحان و عبد الوهاب المسيري.

و بالنسبة لرفاعة الطهطاوي، فتكاد تكون رحلته نموذجاً استدعائياً ضخماً في الجانب الحضاري، وهو أشار بدايةً في مطلع الرحلة إلى أن سبب ارتحاله لبلاد أوربا المتمدنة هو ما صار عليه حال المسلمين من ترد وتقهقر، نراه في رحلته البرية أثناء طريقه إلى باريس يتوقف في بعض الأماكن مما أسماها القهاوي، فيعجب من ترتيبها و نظافتها و سرعة إجابة الطلب ممن يقومون بالخدمة فيها، ثم يرى بعد ذلك ما لهذه المقاهي في خارج باريس وداخلها من المكانة و الاحترام لدى الناس، فيؤمها أرباب الحشمة والصيانة، فهي لا تشبه بأي حال مقاهي القاهرة في تجمع الزعر والحرافيش[١] المتبطلين فيها.

- هناك نوع استدعائي مختلف عن الاستدعاء الذهني المتعارف عند اختلاف العادات و التقاليد من شعب لآخر، فعندما كان محمد عناني في بريطانيا حدث أن زاره شقيق له يدعى مصطفى، وكان

(١)انظر : تخليص الإبريز: ٥٥.

obeikandl.com

أن استقلا القطار، و جلسا قبالة فتاتين إنجليزيتين، ولتمضية الوقت تبادل الجميع بعض الأحاديث الطريفة، وقد أثارت مصطفى على وجه خاص الابتسامات الدائمة على محيا الفتاتين بدون سابق معرفة أو مناسبة، حتى قبل تبادل الأحاديث.

يقول عناني:

"فالإنجليزية عندما تبتسم، فإنها لا تعبّر ببسمتها عن الدعوة للحديث أو التواصل، وهي تبتسم بطريقة تلقائية لا تعبر عن رضى أو سعادة، و ما أكثر المصريين الذين فسروا البسمات تفسيراً مصرياً، و أذكر أن أحدهم استجاب للبسمة استجابة مصرية، فقالت له الفتاة: هل من خدمة أؤديها لك؟ و تملكه الحرج و لم يعرف ماذا يقول، فاخترع قصة لكي يبرر سوء فهمه للبسمة"(١)

فدهشة شقيق عناني مردها الأساسي إلى مناسبة تلك الابتسامات الإنجليزية، وهو لم يعهد في مصر وضعاً كهذا. بل إن عناني ذكر بعد ذلك أنه وجد بعد عودته لمصر أن التجهم هو العلامة البارزة في وجوه الناس، مع أن الإسلام يحثّ على الابتسام و طلاقة الأسارير و التفاؤل و الأمل والبشاشة "و تبسمك في وجه أخيك لك صدقة"(٢)

---

(١) واحات الغربة ٢ / ١٤٦.

(٢) الحديث من رواية أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، و أمرك بالمعروف و نهيك عن المنكر صدقة، و إرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، و بصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، و إماطتك الحجر و الشوكة و العظم عن الطريق لك صدقة، و إفراغك من دلوك لدلو أخيك لك صدقة" أخرجه البخاري

انظر: التاريخ الكبير، للإمام البخاري "محمد بن إسماعيل البخاري" (ت ٢٥٦هـ) مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٦. باب الأدب المفرد.

obeikandi.com

- النوع الثالث من الاستدعاء ما كان بدافع الحنين للوطن الكبير (مصر أو القرية أو بلد المنشأ).

وقد برز هذا النوع عن زكي مبارك و محمد عناني و رضوى عاشور، ولكن المثال الأكثر تكراراً كان عند محمود الربيعي. و كثيراً ما تهاجم الربيعي الصور الاستدعائية الجاذبة لوطنه و لبلدته جهينة، وجهينة دائماً في ذهن الربيعي و مخيلته، فإذا ما رأى أنوار قطار المترو تحت الأرض بلندن، تذكّر يوم العيد في جهينة والأضواء الملونة في سائر البلدة، وإذا ما تجول في حدائق لندن و مسطحاتها الخضراء عاد إلى أحاسيس الطفولة و تجوله في حقول جهينة، "ما أشبه جو (فنسبري) بجو رحلتي في الصباح الباكر من القرية إلى الحقل، تلك هي الطبيعة الشابة السخية، الروائح ذاتها، وفرحة الفؤاد البريء ذاتها"[١]

السمات النفسية:

تمايزت السير النفسية الذاتية عن بعضها بعضاً، بحسب جودتها الفنية والموضوعية، ويبدو أن هنالك واجباً منصوصاً في ضمير هؤلاء الكتبة لسيَر حياتهم، وهو خطّ ورسم ذواتهم في ملامح تستشفها عين القلب والنبض والإحساس الدقيق.

---

(١) في الخمسين عرفت طريقي ، ٨٤

obeikandl.com

وهناك كمّ لا بأس فيه من السير –الهادئة بمجملها– كتبها أصحابها بروح تأملية عميقة، بتجاوز ما هو ظاهر إلى ما هــو أبعــد وأعمــق. وجاءت هذه التأملات مشوبة بنسب متفاوتة من القلق، فالتأملات التساؤلية الهادئة ظاهراً مدفوعة بعامل القلق والحيرة، وكأنها الســمة المشــتركة الجلية لأديب العصر الحديث في العالم العربي.

فبعد سلسلة من الانتكاسات السياسية والهيمنة الغربية، تبدو كتابات من خاض غمار تلك التحولات كتابات مغتربة هادئة متسائلة مشــروخة على قدر ملموس من الرضا، أو بالأصح التسليم وتسلية النفس.

وقد نبضت سطور وفصول السير بأحاسيس كتابهــا، ونــداءاتهم الروحية، لمن يقرأ ما بين السطور وما وراءها.

النبض الهادئ:

ذكرت سابقاً أن سمة الهدوء اتضحت لدى مجموعة كبيــرة مــن كاتبي السيرة الذاتية.

obeikandl.com

ولعل السبب وراء ذلك يكمن في عامل الزمن؛ فمرور السنوات أضاف شيئاً من الرزانة والتروي لهؤلاء الكتاب، فأغلبية أحداث السير وأخبارها جرت في سنوات الشباب وما قبلها وما تلاها بقليل. ومرور الزمن على تلك الأحداث يدفع كاتب السيرة لاسترجاعها من سراديب الذاكرة واستذكار معايشتها ثانية. وهنا قد لا يتذكر الكاتب ذاته الأولى إلا عبر هذه المحاولة للاستدعاء والتعايش لتلك المراحل العمرية بما فيها من خير وشر.

وكان طابع الهدوء والتأني سمة أساسية عند بعض الكتّاب، وليست مُكتسبة بعامل مرور السنوات.

فسيرة محمود الربيعي (في الخمسين عرفت طريقي) تعكس حفاظ صاحبها على وتيرة الهدوء في كافة مواقفه ومراحله، منذ بواكير حياته في بلدته جهينة إلى ما تلاها من مراحل دراسية وزواج وبعثة وكافة الأحداث.

وحتى في خضمّ المواقف الإشكالية والأحداث التأزمية، كان الهدوء والتماسك السمة الجلية والانطباع الأقوى للسيرة.

فلطالما تحدث عن عقدته في تعلم اللغة الإنجليزية، وكيف عانى الشدائد في سبيل تذليل هذه العقبة الكؤود[1] كشرط أساسي لتحضير درجة

(١) تحدثت سابقاً عن هذه النقطة، راجع الباب الأول، الفصل الرابع.

obeikandl.com

الدكتوراه. إلا إنني أرى أن شخصيته الهادئة والمنطوية ذات الطابع الريفي البعيد عن ضجيج المدن – سواءً في القاهرة أوفي لندن – أسهم في بناء عقدة اللغة الإنجليزية لديه، فماذا يريد ابن بلدة جهينة بالإنجليزية و بماذا سيحتاجها ويستعملها، بل إنه بعد قبوله للابتعاث ظنّ أنه سيحضّر الدراسات العليا باللغة العربية، وبعد أن تأكد له شرط إجادة الإنجليزية، اعتقد بأنه سيجيد اللغة الجديدة في غضون بضعة أشهر – كما سمع– ثم ينطلق لسانه وبنانه حديثاً وكتابة[1]،ولم يدرِ بأن الأمر سيستغرق منه أربع سنوات من أصل خمس سنوات، وهي السنوات المقررة للبعثة قبل أن يشرع في كتابة أطروحة الدكتوراه.

وربما أثرّت طبيعته المحافظة في شدة استغلاق اللغة الإنجليزية عليه، وكان الأجدى به مواجهة نفسه منذ البداية، لينطلق في شوارع لندن وضواحيها ماشياً وراكباً، مع محاولة التحدث مع الآخرين بالإنجليزية والتعلم في نفس الوقت، كأسهل وسيلة للإلمام بناصية الكلام، أو الجرأة علىالحديث بتلك اللّغة – على الأقل– بدلاً من أن يحكم عليه باب شقته الصغيرة، خوفاً من مواجهة الإنجليز.

يقول عن زوجته في بدايات مجيئها للندن: "وكانت تميل هي إلى الخروج للتعرف على الحي، في حين أميل أنا إلى المقام، وكنت أقدّر في نفسي أنني قد أتعرض لموقف لا أرضاه في السوق، أو خلال الصعود

(١) انظر: في الخمسين عرفت طريقي، ٩٠.

obeikandl.com

والهبوط إلى الشارع، فقد يلقاني أحد فيحادثني بالإنجليزية، فلا أفهم ولا أستطيع الإجابة"[1].

ويستطيع أي قارئ أن يدرك بسهولة أن الزوجة كانت هي الأسبق على تعلم الحديث والقراءة والكتابة بالإنجليزية، وبالفعل كانت إنجليزية زوجته أفضل منه بمراحل، لا لشيء، إلا لاختلاف طبيعتها الشخصية عنه ومبادرتها للاحتكاك بالبيئة الجديدة، على عكس زوجها القابع في المنزل، حيث استغرق الأمر منه شهوراً، كي يدرك ضرورة ترك ملازمة المنزل، إن كان يريد فعلاً تعلم اللغة الجديدة.

فالربيعي – كما يبدو من سيرته– هادئ، ليّن، أبعد ما يكون عن الشخص العصبي أو المنفعل.

ويتضح طابع الهدوء العام على مراحل سيرة الربيعي، حتى في أشدها حدّة، مثل مواقف التوتر الشديد في تعلم الإنجليزية، ومثل رد فعله الهادئ بعد مناقشة رسالة الدكتوراه، من غير الموافقة عليها فوراً –كما حدث مع غيره– فكان عليه الانتظار قرابة عشرة أيام أمضاها في أوقات هادئة، لم يتحدث عنها بأي سلوك انفعالي، بل كان يتهيأ فيها للعودة لبلاده مستعداً في تجهيز وترتيب الحقائب مع زوجته، وبيع بعض الأجهزة الكهربائية لشقته الصغيرة، إلى أن أتاه خبر حصوله على الدكتوراه الذي عبرّ عنه من خلال جملة واحدة: "وفي يوم ٢٨ يوليو

(١) المصدر السابق، ٨٤.

obeikandi.com

١٩٦٥م وصلتني النتيجة، فطرت بها فرحاً إلى مكتب البعثات. وأذكر أن الوحيد الذي شاركني الفرحة كان مستر "فيولنج"، وأما الآخرون فلم يبالوا"[١].

ولا ريب أن تسويد بضعة سطور لوصف الانفعالات – أياّ كانت– ناتج عن هدوئه الفعلي الداخلي، وعدم ميله لتضخيم المشاعر الانفعالية، بمعنى أن التوتر– وإن وُجد في السيرة– إلا أنه لا يتضخم إلى ما هو أعقد وأعمق، وأظن أن عامل الحنين للوطن – وهو كثير في السيرة– لعب دوراً محفزاً لاستلهام التحمل والصبر على صعوبات هذه المرحلة من حياته، مرحلة الابتعاث مع ما فيها من مغامرة ومجهول.

واتسمت بعض السيَر بطابع الهدوء المتعمق إلى مستوى التأمل والتساؤل، كما في سيَر رضوى عاشور ومحمد عناني وعبد الوهاب المسيري على سبيل المثال.

وتكثر مصادر التأمل للمغتربين عامة حيال ما يشاهدونه ويعايشونه من واقع حضاري متقدم لافت،لاسيما في مجال الخدمات والمرافق الخدمية، مقارنةً بما يقابله في المجتمعات العربية، وما من مبتعث تقريباً إلا وذكر هذا الموضوع بالذات، وهو محق في هذا بلا شك.

---

(١) المصدر السابق، ١٢٥.

obeikandl.com

وقد يتبلور التأمل في فلسفة نقدية بناءة في جدوى ونفع مرتكـــزات وأساسيات الحضارة الغربية، أو يكون التأمل مـــلاذاً لمـــن لا يســـتطيع إيصال صوته ورؤيته أمام سيل الأكاذيب الإعلامية في طمس الحقـــائق وقولبة الأذهان حسب مصالح الدول الغربية.

وسأورد بعض الأمثلة للنقاط السابقة:

ـ مثّلت السرعة في إنجاز بعض المهام مصدراً للتأمـــل والتفكـــر وأشار إليها أكثر المرتحلين، ففي حقبة السبعينات كانت رحلة رضـــوى عاشور في الولايات المتحدة لنيل درجة الدكتوراه،وقد ساعدها التطـــور المعلوماتي في استحضار المراجع والمصادر الدراسية كثيراً في إنجـــاز رسالتها في فترة قياسية، وأدهشتها سرعة الحصول على مراجع الدراسة في غضون دقائق معدودة: "وأُعطي للشاب الأمريكـــي المســـؤول عـــن الاستعارة الكتب التي أريدها وبطاقتي، فينجز الأمر في دقيقتـــين عبـــر الشاشة الإلكترونية الصغيرة التي أمامه، ويعيد لي الكتب، وسرعة الرجل تنكأ الجرح، وتقلب مواجع الانتظار الطويل لكتاب، والبحث المضني بين أرفف مكتبة جامعية لا يُمسح الغبار منذ شهور عـــن كتبهـــا، وارتبـــاك الفهارس وسوئها"(١).

(١) الرحلة، ٧٠،٧١.

obeikandl.com

ورضوى هنا- مثل غيرها من المثقفين- حزّ في نفسها هذا التطور في تقديم الخدمات المكتبية بسهولة ومرونة لا يعرفها كثير من البـــاحثين الأكاديميين، لاسيما في ذلك الوقت المبكر لاستخدام الحاسوب.

ولا يبدو أن الواقع العربي الأكاديمي تقدم كثيراً منـــذ الســـبعينات حتى وقتنا الحاضر، برغم التقدم المعلوماتي الكبير، ولا تـــزال أرفـــف المكتبات الجامعية ترزح تحت ركام الغبار والإهمال، وهـــذه حقيقـــة لا مناص من الاعتراف بها، مهما اختلفت المبررات.

*****

_ لما كانت حقبة الستينات والسبعينات الميلادية مليئة بالأحـــداث السياسية المزلزلة عالمياً وعربياً، كان من البدهي أن تـــتمخض الســـير الذاتية عن صور توثيقية لأحداث تلك المرحلة الدقيقة. فإذا كانت رحلـــة طه حسين لفرنسا قد تعطلت لبضعة شهور[1]، فرجع إلى بلـــده وأهلـــه مغموماً محبطاً بسبب أحداث الحرب العالمية، وما سبقها وما تلاها مـــن تحولات عالمية، ثم تحسنت الظروف بعد ذلك لصـــالح الفتـــى، ليعـــود لاستكمال دراسته، فإن غيره ممن جاء بعده اضطرته حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧م إلى مواصلة بعثته ودراسته في ظروف نفســـية مأســـاوية، وهو يشاهد ويرى كيف تتحول الأكاذيب إلى حقائق وشـــعارات مثاليـــة بفضل جهود آلة الدعاية والإعلام، يشاهد كل هذا، فـــلا يملـــك إزاءه إلا

(١) انظر الأيام ٣/ ٥٥١.

obeikandl.com

المعارضة الرمزية الخافتة، والانكفاء الصامت، لاسيما وهو يرى نفسه يدرس في بلدٍ معتدٍ على بلاده وأمته ومقدساته.

ويرى كيف يصور الإعلام الغربي العرب في صورة أناس بدائيين متوحشين، يتصيدون الفرص للانقضاض على بلاد الجنة الجديدة: إسرائيل.

يقول عبد الوهاب المسيري عن ذكرياته لتلك الأحداث: "كنت في الولايات المتحدة في أثناء حرب سنة ١٩٦٧م[١]، ورأيت الهستيريا الأمريكية (أقول الأمريكية لا اليهودية) بعد هزيمة مصر في حربها ضد إسرائيل، وأُقيمت الأفراح في كل مكان"[٢].

وقد أدرك المسيري حجم الكارثة التي حاقت بالعرب جراء هذه الهزيمة الساحقة، حتى أنه قرر تقديم رسالة الدكتوراه ومناقشتها، ثم إعلانه رفض الحصول عليها، كرد فعل على ما حدث لبلاده جراء العربدة الأمريكية، إلا أنه وبعد تفكير متأنٍّ عدل عن قراره[٣].

---

(١) في عام ١٩٦٧م قامت الحرب بين العرب والكيان الإسرائيلي المحتل، وخرج العدو مُنتصراً ومُسيطراً على أكبر قدر من الأراضي العربية، فازدادت رقعة الكيان الغاشم وتضاعفت مساحة الدولة العبرية ،لأول مرة منذ قيامها الأول عام ١٩٤٨م، بمباركة أميركية وبريطانية، ويُسمى هذا العام عند العرب بعام النكسة.

(٢) رحلتي الفكرية، ٤٨٤

(٣) انظر: المصدر السابق، ١٥٧.

obeikandl.com

وإذا كان المسيري فكّر في رفض الحصول على الدكتوراه كونه يدرس في الولايات المتحدة الأم الروحية للكيان الصهيوني، فإن محمد عناني ببريطانيا لم يكن بحال أفضل من المسيري، حيث داهمه مرض غريب ألزمه الفراش[١] في إثر إعلان انتصار الكيان الصهيوني.

وقد آثر تقديم استقالته من أحد مكاتب الترجمة، برغم حاجته المادية، على اعتبار أن عمله هذا في "جهة معادية" [٢]، حتى لو كانت مُستقلة عن الحكومة.

وقد يتعمق التأمل لأكثر من مستوى الأسئلة المثارة والحيرة بعد ذلك لتحصيل الأجوبة الشافية.

وتُعدّ سيرة عبد الوهاب المسيري أكثر السير المعالجة تعمقاً وتفكراً وتدبراً.

والمسيري في رؤاه ومعتقداته التأملية الفذة يصل إلى حد التنظير لإشكالات فلسفية لدعائم الحضارة الغربية المعاصرة، إشكالات مُحيرة لأهلها كما لغيرهم من الأمم الأخرى.

ومن تلك التأملات- وهي كثيرة جداً في سيرته- تعمقه في موضوع دقيق وغاية في الأهمية في عصرنا الحاضر، وهو مصادر

---

(١) انظر: واحات الغربة ٢ / ٩٥.

(٢) المصدر السابق ٢ / ٩٥.

obeikandl.com

الطاقة النظيفة، مثل الطاقة النابعة من قوة المياه أو الرياح، وهذا ما سارت عليه نهضة أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر، فهذه المصادر مصادر (بيئوية) أي أنها بلغتنا المعاصرة مصادر صديقة للبيئة، وغير ضارة بالحرث والنسل وسائر أنواع الحياة على كوكب الأرض، فالله سبحانه أوصى الإنسان -خليفته على الأرض - بالأرض، في آيات عديدة " وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرضِ بَعدَ إِصْلاحِها"(١).

ولكن الطاقة النظيفة هذه اختفت بسرعة مع صعود نجم طاقة جديدة اعتمدت اعتماداً كلياً على استغلال الأرض، واستئصال موارد الطبيعة حتى تنتهي. وحينما بدأت الثورة الصناعية في أوروبا تطورت تكنولوجيا الطاقة المستخرجة من الفحم ثم البترول، أي الطاقة المستخرجة من باطن الأرض، وتهاوت صناعة تكنولوجيا الطاقة المعتمدة على المصادر البيئوية التي تعمل لصالح الطبيعة، لا ضدها، بسبب غلبة النموذج الإمبريالي المعتمد على "بقر بطن الأرض، ونهب مافيها، و استهلاك المصادر الطبعية، ولو كان التحيز الغربي مختلفاً، لربما اتخذ التطور التكنولوجي في أوروبا مساراً مختلفاً"(٢).

وقد يصعب علينا - أبناء هذه الحضارة، ونحن نعتمد عليها في كل شؤون حياتنا تقريباً- تقبّل هذه الرؤية الفلسفية، ولكن الاستعمال الخاطئ

---

(١) سورة الأعراف، آية ٥٦.

(٢) رحلتي الفكرية، ٤٤٣.

obeikandi.com

للطاقة الحالية تكاثر بصورة لا يمكن حصـــرها، فقـــد تلوثـــت الميـــاه، وارتفعت درجة حرارة الأرض بسبب الانبعاثات الغازية السامة،وتفاقمت الأمراض المرافقة للنمط الحضاري المعاصر، وأصبحت أشبه بالأوبئـــة فالاستعمالات الهائلة لمادة اللدائن (البلاستيك) شاعت في جميـــع أنحـــاء العالم، وأصبحت محيطة بإنسان العصر إحاطة السوار بالمعصـــم، فـــي كافة الأشكال والاستعمالات المعيشية والصحية ونحوها، ولم يُعـــد أحـــد يتساءل عن أضرار هذه المواد اللدنية في حالة تفاعلها الدائم مع الرطوبة أو الحرارة أو الغبار، إلا بعد تزايد الأمراض المختلفة، وانتشرت كـــذلك الأمراض، بعد النشاط المحموم في ســـباق التســـلح العـــالمي بالطاقـــة الإشعاعية.

وقد أدى ارتفاع درجة حرارة الأرض إلى اضطراب منسوب المياه فيها، فذابت جبال ثلجية كاملة في القطبين، وتزعزعت حيـــاة الكائنـــات الحية فيها، وبدأت سلسلة الانقراض لكثير من النباتات والحيوانات شـــيئاً فشيئاً.

وهذه التأملات الفلسفية العميقة تأملات خيّرة، نابعـــة مـــن رؤيـــة ربانية شاملة لإنسان أو مجموعة أفراد، لا يملكون إلا نشر الوعي وتنوير البصائر، لتجاوز ما هو قائم ومُضخم وساطع إلى ما وراءه من حلـــول ووسائل تنتهج رؤية أخلاقية عادلة في التعامـــل مـــع خيـــرات الأرض وطرق استعمالها. والأرض لا تحتوي فقط على منبع أو منبعين أو ثلاثة

obeikandi.com

للطاقة، بل إنها وسائر الكون مُسخّرة للإنسان –خليفة الله في الأرض– " وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً "[1]. متى ما استرشد الإنسان بالمنهج الرباني الحكيم في كيفية التعامل مع نفسه، ومع ما حوله من الكائنات والخيرات.

******

الحسّ الفكاهي:

إذا كان النبض الهادئ قد برز مرتفعاً في قدر ملحوظ من السير الذاتية، وتمخض عن رؤى فلسفية أحياناً وتساؤلات قلقة أحياناً أُخَر، فإن حسّ الفكاهة والسخرية برز لدى آخرين غيرهم، وعكس أسلوبهم المتفكّه في مواجهة وجوه الحياة وتقلباتها، وتبدو (ذكريات باريس) لزكي مبارك خير مثال لهذا الجانب.

وشخصية زكي مبارك نسيج متأصل من الفكاهة والتفاؤل والإيجابية تجاه نفسه وغيره والحياة عامة، وهو الذي حاز ثلاث شهادات دكتوراه، وسعى لنيل الدكتوراه الرابعة[2]، ليدرس ضمن جيل أبنائه وأحفاده، بروح ملؤها الأمل والحماسة، دون أن يُحمّل عوائق الطريق وشدائد الظروف أكثر مما تحتمل، فكان يشير إليها بجمل عابرة وكلمات مقتضبة، ولا يدع للتشاؤم مدخلاً إليه، بل العكس.

---

(١) الجاثية الآية ١٣.

(٢) انظر: زكي مبارك. سلسلة أعلام ومشاهير،٩١.

obeikandi.com

أمضى زكي مبارك أمسية طويلة لا تُنسى في أشهر أقاليم الريف الفرنسي، بعد أن أزمع رؤية الريف والخروج من صخب المدينة. وكانت ليلة وصول مبارك إلى نورمنديا ليلة شاتية عاصفة، لم يجد فيها نزلاً شاغراً إلا بعد جهد جهيد، واستطاع الاهتداء إلى نُزل تملكه سيدة متقدمة في العمر، و تعرّف فيه على قريبة السيدة التي تعاونها في إدارة النزل، وكانت شابة جميلة الطلعة بهية الطلة، يقول:

"فتاة هيفاء ساحرة الطرف، أسيلة الخد، واضحة الجبين، لا أذكر أني رأيت مثلها في باريس، فاندفعت في طيش ونزق أقيدها بأسباب الحديث، وقلت: أنت نورمندية يا مدموزيل؟ فأجابت: لا، ولكني بريتانية. فقلت: يا للشرف! أنت إذن بلدية إرنست رينان؟ فقال: ومن هو إرنست رينان؟ فقلت: الفيلسوف الكبير مؤلف كتاب مستقبل العلم، وكتاب حياة المسيح. فقالت: لا أعرف. قلت: عجباً، إن الشيخ بخيت يعرفه، وقد نقض فلسفته في محاضرة ألقاها بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٤م، فقالت: ومن الشيخ بخيت؟ فقلت: تجهلين هذا أيضاً؟ هذا فيلسوف عظيم،وهو صاحب كتاب (منحة العبيد في علم التوحيد) وكتاب..

ولم أصل إلى هذا الحد من المحاورة حتى سمعت الجرس يدق دقاً عنيفاً متوالياً، وإذا ربة المنزل تصيح: ماري! انزلي، ماري! انزلي، ليست هذه ساعة التلكؤ والفضول.. ونزلت الفتاة مسرعة، وعرفت أن ربة المنزل لئيمة، وأنها أبخل وأضن وأحقد من أن تسمح بمحاورة هذه

الشقراء الهيفاء، فأسررتها في نفسي، وأقسمت لأتركن هذه الغرفة لتصفر فيها تلك العجوز الشمطاء... ثم خرجت متعللاً بأن الغرفة لا توافقني لأنها تطل على الفناء،وكنت أحسبها تشرف على الميدان، ولكن إلى أين أذهب والمطر ينسكب بشدة كأفواه القرب بحيث لا تغني في دفعه المطرية –ولا أقول الشمسية–؟ لأنّا هنا نتقي بها المطر لا الشمس! إلى أين يذهب الغريب في هذه المدينة المتوحشة وقد انتصف الليل أو كاد؟"[1].

وهذا ديدن زكي مبارك، وطبعه الأصيل في التعالي على الهموم وحصرها، لئلا تخترق درع تفاؤله وإيجابيته المحضة، فعند مغادرته النزل آثر التجول على شاطئ المانش طيلة الليل مستمتعاً برؤية الصيادين واستعداداتهم المبكرة قبيل الفجر لتهيئة مراكبهم وأشرعتهم وشباكهم في مشهدٍ أدبي زاهٍ رسمه عبر رسالته لأحد أصدقائه.

ـ ونجد حساً فكاهياً واضحاً وبارزاً بصورة أكثر جلاء عند هالة سرحان، ورحلتها الدراسية لأمريكا، إبان حقبة التسعينات الميلادية.

ولم تكن الكاتبة تستغني – كغيرها من المصريين– عن طبخ بعض الأطباق المصرية، مثل الملوخية اللذيذة التي أحضرتها بصعوبة بالغة من القاهرة، لإعدادها في حفلة بسيطة مع بعض صديقاتها الأمريكيات، ولم

(١) ذكريات باريس: ٢٠٢ ، ٢٠٣.

obeikandl.com

تكن تتوقع رد فعل صديقتها فيكي الرافض تماماً لرؤيـــة هـــذا الطعـــام الفاسد، وذهبت محاولات الإقناع بجدوى محاولة تناوله أو تذوقـــه عبثـــاً مثلما أقنعتها سابقاً بتذوق طبق من الفول المدمس[١]، ولكن دون جدوى هذه المرة، مع هذا السائل الأخضر الكثيف.

وقد احتل موضوع الطعام جانباً ملحوظاً في ذكرياتها لهذه الرحلة الدراسية.

ففي بدايات مجيئها لأمريكا استضافتها أسرة أمريكية، دارت بينها وبينهم محاورات في موضوعات مختلفة، كـــان مـــن ضـــمنها الطعـــام واللحوم، لتكتشف أنها في ضيافة أسرة نباتية بيئوية، تعدّ أكـــل اللحـــوم: "همجية ووحشية، وقلبها يأكلها على شعور البقرة لحظة ذبحها"[٢].

وفي نفس الوقت، تلاحظ الكاتبة شدة عناية الأسرة الأمريكية بتربية الحيوانات ورعايتها وإنفاقها مبالغ باهظة لإطعام هذه الحيوانات أصناف اللحوم المتعددة في أشكال مبتكرة من: "معلبات كبد الدجاج المهـــروس، والإستاكوزا المفرومة بالجمبري"[٣].

وللقارئ أن يستغرق في التأمل الساخر لتوفير هذه الأسرة اللحـــوم المتنوعة للقطط والكلاب، وتحريمها علـــى أفرادهـــا، بمفارقـــة متأملـــة

---

(١) انظر: أمريكا خبط لزق، ١٣٩.

(٢) المصدر السابق، ٢٥.

(٣) المصدر السابق، ٢٨.

obeikandl.com

للتناقضات الثقافية والإدراكية لدى هذه الأسرة، ومثلها كثير وشائع في المجتمع الأمريكي.

*****

تميزت بعض السير بكثرة استخدام الأساليب الإنشائية، كما في رحلة هالة سرحان (أمريكا خبط لزق)، والرحلة وإن جاءت في سياق المقالات إلا أنها مقالات استفهامية تساؤلية تعجبية واستنكارية كذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن عامة التساؤلات عند سرحان لا تتعمق كثيراً في القضايا الإشكالية، ولا تجنح للجانب الفلسفي وراء اختلاف العادات وطرائق التفكير، كما نجد مثلاً عند عبد الوهاب المسيري، بل تطغى عليها الفكاهة الساخرة حيناً، والامتعاض العابر حيناً آخر، مثلما تقول لصديقتها فيكي:

"يا فيكي عندنا نظرة فلسفية رائعة في كلمتين، نرددها في هذه الأحوال (عليه العوض ومنه العوض)."[1]

وكان الحوار يدور حول موضوع نظام (الجمعية) لتوفير النقود، وهو معروف لدى عامة الناس وخاصتهم، في اشتراك مجموعة من الناس بقسط شهري من المال، يدفعه كل منهم، بحيث يكون مجموع الأقساط من

(١) المصدر السابق ، ١١٥.

obeikandi.com

نصيب شخص ما في داخل المجموعة في شهر، ومن نصيب الشخص الآخر في الشهر التالي، وهكذا يسهم هذا النظام التعاوني في حل بعض الأزمات المالية، دون الوقوع في شرك الأقساط البنكية وفوائدها الربوية، الأمر ليس جديداً على الإنسان العربي بقدر ما هو جديد على الإنسان الغربي، وقد أُعجبت فيكي بنظام الجمعية، إلا أنها طرحت احتمال وفاة أحد المشتركين فيها، فمن سيسدد القسط عندئذ ؟ وتتعاقب الحوارات في أغلب فصول الرحلة بين النداء والأمر والاستفهام الاستطلاعي أو الاستنكاري، مما يضفي على السيرة روحاً حيوية في كافة موضوعاتها المطروحة.

obeikandl.com

المبحث الثالث

المستوى التركيبي

من بدهيات دراسة المستويات التركيبية التطرق للموضوعات السابقة في المبحثين الماضيين، بالأخذ منها، والإضافة لها، حتى تكتمل الرؤية الفنية للبناء اللغوي على أتم صورة.

وكنت قد أشرت إلى بعض ما أحدثته حركة الترجمة والصحافة في عصر النهضة الحديثة، من نشاط لغوي، إحياءً وإبداعاً لفنون اللغة والأدب؛لجعلها مواكبة للغة العصر الحديث، وجعلها أيضاً أكثر قرباً والتصاقاً بإنسان هذا العصر، وهذا ما يحسب لهذه الحركة الإحيائية.

-وأود الإشارة كذلك إلى أن دخول كثير من التراكيب اللغوية المترجمة عن طريق هذين المنبرين (الصحافة، الترجمة) أوجد لهذا التراكيب قبولاً ورواجاً عند الخاصة والعامة، واستوعبتها أساليب الأدب الحديث، مثل هذه العبارات:

-لا جديد تحت الشمس.

-ذرّ الرماد في العيون.

obeikandl.com

-وضع المسألة على بساط البحث.

-هيئة المحكمة.

وغيرها من التراكيب اللغوية المترجمة [1] عن اللغات الأجنبية. ويرى أنيس المقدسي في سعة احتواء اللغة العربية لهذه التراكيب "خطوة واسعة" في سبيل التجديد، والواقع أن أدباء العربية اليوم يمارسون ذلك عملياً في منظومهم وفي منثورهم "[2].

-ولاشك بصحة هذا الرأي وسلامته، فما دامت الألفاظ عربية اللسان، فلا ضير من دخول هذه التراكيب والألفاظ إلى القاموس اللغوي الحديث، فهناك مئات الألفاظ التي عرفت بعد حركة الترجمة الشهيرة في العصر العباسي، واستوعبتها اللغة العربية أجمل استيعاب، مثل كلمات: المستحيل، الطبيعي... الخ وغيرها من الألفاظ. وهذه من آثار الترجمة عن علوم اليونان وفلاسفتهم. وهناك من الألفاظ الغزيرة من اللغات الأخرى كالفرس والترك، ولاشك بأن هذا دلالة بينة على قوة الجانب التوليدي الخصب للغة العربية.

-ومن ناحية أخرى دخلت لقاموس أدب العصر الحديث بعض التراكيب اللغوية المستحدثة عن طريق مبدعيها من متأدبي العصر

(١) انظر : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ، أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ط ٥ / ١٩٩٠م ، ٦٢٧.
(٢) المرجع السابق : ٦٢٧.

obeikandi.com

الحديث وأعلامه. وقد ذكر زكي مبارك جملة من هذه التراكيب الطريفة، وتعرض بالتأييد لبعضها والمعارضة لبعضها الآخر، مثل هذه العبارات[1]:

-ولله في خلقه شؤون.

-أخجلتم تواضعي.

-استشعر الندم.

- تميزت المستويات التركيبية للمصنفات الأدبية المبكرة بسماتٍ بلاغية قوية، بتشبثها بالتراكيب الإنشائية القديمة، مما قد يُسمى بلغة عصرنا الحاضر الأساليب المندرسة، التي لم تعد تستعمل منذ أمدٍ بعيد، برغم صحتها وقوتها ودلالتها المناسبة.

ولنأخذ مثلاً رسالة ذكرها رفاعة الطهطاوي، أرسلت إليه من قبل والي مصر محمد علي باشا، وهي رسالة تنبيهية إلى أفراد البعثة المصرية في فرنسا لما علم به الوالي من تراخي طلاب البعثة بعض الشيء في تحصيل العلوم النافعة والجد والاجتهاد:

(١) انظر : النثر الفني في القرن الرابع ، زكي مبارك ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ط ٢ (د.ت) ، ١ / ١٨٣.

obeikandl.com

"قدوة الأماثل الكرام، الأفندية المقيمين في باريس، زيدَ قدرهم... ينهى إليكم أنه قد وصلتنا أخباركم الشهرية، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة، لم يفهم منها ماحصّلتموه في هذه المدة، وما فهمنا منها شيئاً، وأنتم في مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون، فقياساً على قلة شغلكم في هذه المدة، عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمّنا غماً كثيراً. فيا أفندية: ما هو مأمولنا منكم ؟ فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من أثمار شغله وآثار مهارته، فإذا لم تغيروا هذه البطانة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة، وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتبٍ، فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون، فإن ظنكم باطل " [1]

وفي الرسالة تنبيه وتوبيخ، وحث على اغتنام الوقت؛ لاكتساب أكبر قدر ممكن من العلوم والفنون النافعة.

وقد ابتدأت الرسالة بعبارة إنشائية قديمة:

قدوة الأماثل الكرام.

ونحن إذا تذكّرنا تميّز المكاتبات السلطانية، منذ القدم وحتى عصر الطهطاوي، لا يأخذنا الاستغراب لمثل هذه المطالع الإنشائية في هذه المكاتبات.

---

(١) تخليص الإبريز : ٢١٥.

obeikandi.com

-أما السمة الفنية الثانية في التراكيب الإنشائية المبكرة، اعتمادها الواضح على الأساليب البلاغية كالتضمين والاقتباس وفنون البديع من طباق وجناس ومقابلة، ونحو ذلك.

وعلى رأس تلك الكتابات المبكرة، يأتي كتاب (رسائل البشرى) لحسن توفيق العدل في صدارة هذه الكتابات المنمقة بلا منازع، فلا أكاد أجد له نظيراً في حسن بيانه وتمكنه من ناصية اللغة الوضاءة، وجاءت موضوعاته في سياقات لغوية مدهشة ببيانها وبلاغتها وأساليبها المحكمّة، مثلما يصف مطلع الفجر، فيقول:

" وحينما سلّ الصبح من غمد الظلام سيفه، وفتح الأفق عن حدقة الشمس طرفه، هزتني أريحية الآمال إلى السير والترحال، فامتطيت الراين في باخرة ماخرة.

يشق حَباب الماء حيزومها بها

كما قسّم التربَ المُفائِل باليدِ" (١)

وقد شبّه انسلال ضياء الصباح من الظلام بالسيف الذي ينسل من غمده، وشبه انفتاح الأفق وظهور الشمس بانفتاح الطرف وظهور حدقة العين، وقد ذكر المشبه وحذف المشبه به على سبيل

(١) رسائل البشرى ، ٤٣.

obeikandi.com

الاستعارة المكنية، وجاء بالقرينة وهي (حدقة، طرف) ويوجد السجع بين (سيفه، غمده).

والترادف المعنوي بين (السير، الترحال).

وشبّه ركوب الباخرة التي جرت تشق البحر مع صوت، بركوب الخيل السريعة الجري التي تظهر صوتاً، وذكر المشبه وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية، وجاء بالقرينة(امتطيت).

وشبّه شق مقدمة السفينة للماء إلى قسمين بسهولة ويسر، كما يقسم اللاعب التراب بيده إلى قسمين، وجاء باقتباس شعري للشاعر الجاهلي طرفة بن العبد في سهولة انقسام الماء.

– ومن أمثلة التناص عند مصطفى عبد الرازق يصف منظراً على ظهر السفينة التي أقلته لأوروبا، فيقول:

" وتتعالى نبرات الموسيقى نغماً سريعاً متواصلاً، فكأنما تلك الأسرار طيور، وكأنما تلك الوجوه الشفافة شعلة نار ونور، وكأن بدوراً تعانقها بدور، وكأن الأرض والسماوات تمور " [1]

(١) مذكرات مسافر : ٢٤.

obeikandi.com

وقد جمع النص فنون التشبيه والسجع لرسم الصورة الوصفية، ولا أعلم ما وراء تضمين الآية الكريمة "يوم تمور السماء مورا " كختام لهذا المشهد الحسي.

وقد يعمد عبد الرازق كذلك لتضمين حديثه بعض الأبيات الشعرية عوضاً عن النثر، مثلما ذكر عندما أراد مغادرة باريس مع صديقه:

"ولما قضينا من باريس كل حاجة، ومسح الأركان من هو ماسح، قال رفيقي: نذهب إلى لندرة في طيارة " [1]

وهذا التضمين لأبيات الشعر المعروفة:

ولما قضينا من مِنى كل حاجة

ومسح بالأركان من هو ماسح

وشُدّت على هدب المهاري رحالنا

ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

وسالت على أعناقهن الأباطح [2]

(١) المصدر السابق : ٥٧.
(٢) نسب ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) هذه الأبيات إلى الشاعر كُثير عزة ، انظر : "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر". ابن الأثير ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد. (د.ن) ،١٣٥٨هـ

obeikandl.com

– ولم يوفق الكاتب في هذا النص أيضاً، لاستحضار المثال المناسب، لمغادرة مدينة كباريس بمثل مغادرة البيت العتيق، وهو اختيارٌ يدل على عمق ولع وتعلق الكاتب بباريس، وقد سبق له أن عدّها عاصمة الدنيا والآخرة من شدّة شغفه بها.

–و لا يقتصر الاحتفاء بالاقتباس والتضمين في كتابات الأولين فقط، بل نجده كذلك عند من جاء بعدهم حاضراً في آثارهم، وإن كانت الأدوات البيانية عامة، علامة بارزة لدى السابقين، إلا أنه تحجم فيما بعد، ليصبح وجوده بحسب حاجة الموضوع ذاته، وليس لغاية فنيّة وشكلية، أواقتفاءً بالأساليب السابقة فقط.

ففي سيرة عبد الوهاب المسيري –على سبيل المثال– نجد توظيفاً سليماً للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر بطبيعة الحال، من دون إكثار في هذا التوظيف. وهذه ميزة أسلوبية عند المتأخرين في إيراد أدوات البيان بحسب الحاجة إليها فقط، مثل إشارة المسيري عن موضوع تعاظم الذات الفردية في إنسان المجتمعات الغربية، فيصف هذا الإنسان بأنه:

" ممعنٌ في الفردية، في حالة تنافس دائم مع من حوله، فهو ذاتٌ مستقلة، مرجعية ذاتها، لها قوانينها الخاصة، لايمكنها إرجاء تحقيق الذات، خاصةً وأنه لا يؤمن بآخرة، فإن هي إلا الحياة

obeikandi.com

الدنيا ولهذا توقعاته دائماً عالية للغاية، وسريعاً ما ينفد صبره "[١].

وهنا تضمين قرآني مناسب للموضوع.

- وقد تنتشر بعض التراكيب المستحدثة التي لا تتفق مع نظام اللغة العربية، ومن ذلك التراكيب التي تقترن فيها (ال) بـــ (لا) النافية، مثل: اللاشيء، اللانهاية، اللامعقول، اللاشعور،... وهكذا.

مثل هذا النص عند رضوى عاشور:

" أنتظر كل يوم ساعة البريد، أمام الصندوق الصغير، الذي يحمل لي الفرح أو اللاشيء " [٢]

وتزخر سيرة عبد الوهاب المسيري بأمثلة كثيرة لهذا الاستعمال:

" اللا زمني، اللا محدود، اللا حرب، اللا سلم "[٣]

ولا نكاد نجد مثل هذه التراكيب في آثار المبكرين؛ ربما لسلامة أساليبهم من الشطط والإغراب، والتزامهم بسلامة اللغة، بينما

---

(١) رحلتي الفكرية : ٢٦٣.
(٢) الرحلة : ١٠٨.
(٣) رحلتي الفكرية. الألفاظ مؤخوذة بالتوالي من الصفحات ١٢٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤.

obeikandl.com

توجد بكثرة في كتابات المتأخرين، كأثر من آثار الترجمة ومتداولات اللغة الصحفية المعاصرة.

- واتسمت بعض السير بسمات مشتركة، لاسيما تلك السير الزاخرة بالأفعال الماضية على نحو ملحوظ، فالإكثار إلى حد الغزارة في استعمال الأفعال الماضية وأفعال الكينونة، يحمل أكثر من دلالة وعلامة، كما نوّه عبد الرحمن الحيدري في دراسة سابقة عن أدب السيرة الذاتية، مشيراً بأن التكثير من أفعال الكينونة يجيء بإشباع رغبات داخلية في نفس كاتب السيرة، مثل استحضار الماضي إن بالارتياح أو الحسرة والألم، وإشعار القارئ بأن تلك الأحداث كانت جزءاً من عمر الكاتب، وهي الآن مجرد ذكرى. (١)

ولاشك بأن هذا الرأي يحمل تبريراً وجيهاً لدافع كثرة استخدام الفعل(كان) بمختلف تصريفاته (كان، كنا، كانوا...)

وأميل إلى سبب الإمعان في التذكر؛ نتيجة للهوة الزمنية الشاسعة بين ماكان عليه، وما صار إليه صاحب السيرة.

فالإكثار من صيغ الماضي دلالة على استشعار الكاتب بمدى تغير الأحوال وتبدلها مرة أو مرات عديدة، وتقلبها من حال إلى حال.

(١) انظر : السيرة الذاتية في الأدب السعودي ، عبدالله الحيدري ، ٥٨٢.

obeikandi.com

وهذا ما يفعله عنصر الزمن / مرور الوقت والسنوات وعشرات السنوات، فكأنما يعطي الكاتب درساً للقارئ ولنفسه كذلك عن قوة تأثير مرور الزمان، وخضوع الجميع له من أناس وأماكن وأحوال المجتمع، فهو هنا في حال الاعتبار والتبصّر، تلميذ يقرأ صفحة من كتاب الزمان.

والإكثار من صيغة الماضي يضيف إلى ما سبق سمة الهدوء والسكينة اللازمة للتأمل، فلا يكتب المرء كتاباً فيه كان وكنا وكانوا وكنت إلا بعد مروره بهذه المرحلة من استشعار المدى الزمني على نفسه ومن حوله، لينتهي إلى التأملات الغزيرة المستندة إلى كان وتصريفاتها المختلفة.

نجد هذا واضحاً عند أحمد أمين و رضوى عاشور ومحمد عناني ومحمود الربيعي، وغيرهم.

على سبيل المثال عند أحمد أمين:

"كانت أمي قصيرة النظر، فورثت عنها قصر النظر" ص٦٦

"كنت في صباي لا اقرأ الجرائد" ص١١٠

obeikandi.com

"كان شعوري الديني وأنا طالب بمدرسة القضاء لايزال قوياً كشعوري الوطني" ص١٣١

* وعند محمد عناني:

" كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً " ص٩

"كان الجو الصحو يغري بالسير" ص١٩

"كان يصحبني أحياناً بعض الأصدقاء" ص٥١

* وعند محمود الربيعي:

"كنت قد شكوت إليه حيرتي " ص٦٦

"كنت سعيداً ومندهشاً" ص٧٣

"كنت أتذكر القصص التي قرأتها" ص٧٤

* وعند رضوى عاشور:

"كان الجو العام في القاعة شديد الحيوية والتنوع " ص٣١

obeikandi.com

"كان احتفاء الآخرين هو دائماً مؤثراً في النفس" ص٤٣

"كنت أتحدث تليفونياً إلى مكتبنا الثقافي " ص١٧٠

– وهناك من أوضح بجلاء أن الإكثار من إيراد الأفعال الماضية دلالة على القِدم والقديم[١]

وهذا تأييد لما ذهبت إليه، باستشعار الكاتب لقوة عامل الزمن وتأثيره.

ويستطيع قارئ الأمثلة السابقة استشعار الرتابة والآلية والحسّ المتضائل لإيقاع الحياة.

[١] انظر : الأسلوب والأسلوبية ، بيير جيرو. ترجمة : منذر عياشي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت (د. ت) ، ٤١.

obeikandl.com